

الموقف العربي (بيروت)، 1988/4/18.

كتاب: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين 1841-1901، بيروت 1988.
تأليف: عبد الرؤوف سنو
مراجعة: أحمد فرحات

مصالح ألمانيا في المشرق العربي بدأت ثقافية وانتهت سياسية

منذ زمن ليس بالقريب غدا موضوع التغلغل الأوربي إلى مقاطعات الدولة العثمانية، خاصة في بلاد الشام، موضوعاً أساسياً لعلم الاجتماع السياسي، من قبل عدد من الباحثين العرب وأساتذة الجامعات. وفي رأس قائمة الدول الأوروبية التي عملت على اختراق مقاطعات الدولة العثمانية واتجهت الأبحاث إلى تتبعه وتأريخه ومعالجته، كانت فرنسا وبريطانيا. أما الدول الأوروبية الأخرى التي كانت فاعلة في ما يسمى بـ "المسألة الشرقية"، مثل النمسا وبروسيا وروسيا القيصرية، فغابت عن مجال البحث والدراسات العديدة. ربما بسبب حدة وقرب العلاقة بين العالم العربي وبين فرنسا وبريطانيا، وبعدها بالمقابل من ناحية روسيا وألمانيا. إلا أن ذلك لا يمكن أن يعفي الباحثين من طرق باب البحث لاستقراء تاريخ العلاقات الروسية والألمانية من جهة، والعربية من جهة أخرى.

في هذا المجال، صدر مؤخراً عن "معهد الإنماء العربي" - سلسلة "الدراسات التاريخية"، كتاب للدكتور عبد الرؤوف سنو بعنوان "المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين 1840-1901"، وهو بحث كان قد أعد لنيل شهادة الدكتوراة في العلوم الاجتماعية.

حدد الباحث هذه الفترة مجالاً لبحثه لأسباب منهجية وتاريخية، باعتبار أن "الأزمة المصرية" التي حملت محمد علي باشا إلى حكم مصر، ومكنته من السيطرة على سوريا وفلسطين حوالى العقد الثالث من القرن التاسع عشر، فتحت الباب واسعاً للتغلغل العربي في مقاطعات السلطنة العثمانية، لا سيما الأقطار العربية منها. فبين عام 1831 و1840م، كانت الإرساليات التبشيرية الأوروبية والأميركية استقرت في سوريا وفلسطين، وافتتحت أول قنصلية أجنبية في بيت المقدس. كما وتتميز تلك الفترة نفسها بعقد بريطانيا والدولة العثمانية معاهدة بلط- ليمان "التجارية، التي كانت نتائجها كارثية على الاقتصاد العثماني، لأنها مهدت لسلسلة من معاهدات الاختراق الغربي للسلطنة.

ومع أن التغلغل الألماني (البروسي يومها) تأخر زمناً عن نظيره الفرنسي والبريطاني، فإنه على غرارهما بدأ تبشيراً وثقافياً وانتهى اقتصادياً وسياسياً. لذا، فإن نشاطات الألمان ذات الطابع التبشيري الثقافي تحتل حيزاً هاماً وواسعاً في دراسة سنو التي نحن بصددتها. إلا أن الباحث من أجل أن يكون بحثه دقيقاً وواقعياً، تطرق في التاريخ الألماني نفسه ليبيّن لوحة تناقضاته الداخلية التي أفضت إلى نشوء التبشير، ومن ثم الرغبة في إيجاد موطن قدم في ممتلكات الرجل المريض.

في الفصل الأول من هذه الدراسة، نتعرف إلى المشروع البروسي – البريطاني وحيثياته في سبيل إنشاء مطرانية القدس الإنجيلية التي كانت الخطوة الأولى للأرساليات البروتستانتية في الشرق الأدنى، خاصة الألمانية منها. وفي الفصول التالية، تتبع الدراسة وتحلل أعمال هذه الجمعيات ومبادرات المبشرين الفردية والموقف الألماني الرسمي من نشاطاتها. إلا أن الحلقة الأهم في عملية التتبع والتحليل، ربما كانت تلك التي تمتد ما بين بناء قناة السويس، وتأسيس الرايخ الألماني سنة 1871، وهو الذي أدى إلى توريث ألمانيا بقوة في المسألة الشرقية خلال الربع الأخير من القرن الماضي.

تجدر الإشارة أخيراً إلى أن الدراسة أغفلت معالجة قيام "جمعية الهيكل الألمانية" بإقامة مستوطنات لها في فلسطين. وربما يتأتى هذا الإغفال من وجود دراسة هامة ووثائقية في هذا الصدد قام بها المؤرخ اليهودي ألكس كارمل. أما إغفال نشاطات الجمعيات الألمانية المنقبة عن الآثار فربما جاء إغفاله عن كون الموضوع يتعلق بعلم الآثار أكثر من تعلقه بعلم التاريخ. أما الإغفال الثالث الذي لا مبرر له، فعدم التطرق إلى دراسة وتتبع علاقة الدولة الألمانية بنشاطات اليهود في فلسطين.